سلسلة تفريغات شبكة بينونة

القول المسدد في سيرة الإمام أحمد رحمه الله

الشيخ

د. محمد بن غيث

من هنا باقي التفريغات

قام به فريق التفريغ في شبكة بينونة للعلوم الشرعية

@BaynoonanetUAE @Baynoonanet www.baynoona.net

القول المسدد في سيرة الإمام أحمد رحمه الله

القول المسدد في سيرة الإمام أحمد رحمه الله

الشيخ
د. محمد بن غيث غيث

شبكة بينونة للعلوم الشرعية

حقوق الطبع محفوظة

للمزيد من الكتب

@BaynoonanetUAE @Baynoonanet
www.baynoona.net

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلَّىٰ الله وسلَّم علىٰ نبينا إمامِ المرسلين، وعلىٰ آلِهِ وصحبِهِ أجمعين، وعلىٰ التابعين وعلىٰ من تبعهم بإحسانٍ إلىٰ يومِ الدين.

أما بعدُ...

أيها الأفاضل:

مع رابع الأئمة الأعلام، وشامةِ علماء الإسلام، مع الإمامِ الربَّاني حقًّا، وشيخ الإسلام صِدقًا، سيِّد المسلمينَ في عصره: الإمامُ أحمد بن محمد بن حنبل الذُهلي الشيباني المروزي ثم البغدادي، أبو عبدِالله.

كان أبوه من أجناد مَرو، تُوفِّي وهو شابٌّ في الثلاثين من عمره وأمُ أحمد حاملٌ به، فأتت به إلىٰ بغداد وهو حَملٌ.

وُلِدَ في شهر ربيعٍ الأول، وقيل: ربيع الآخر، سنة أربعٍ وستين ومئة، فوليته أمه، وكان في حداثة سنِّه يختلف إلىٰ القاضي أبي يوسف يتعلَّم منه الفقه، ثم ترك ذلك وأقبل علىٰ سماع الحديث، فكان أولُ سماعهِ سنة تسعٍ وسبعين ومئة، وهو ابن خمس عشرة سنة أو ستةَ عشرة سنة في العام الذي مات فيه الإمام مالك وحمَّاد بن زيد -رحم الله أئمة الإسلام-.

واجتهدَ في طلب العلم كثيرًا جدًّا حتىٰ قال عن نفسه: «**ربما أردت البكور في طلب الحديث فكانت أمي تأخذ بثيابي حتىٰ يُؤذِّن الناس**»؛ أي حتىٰ يُؤذَّن للفجر.

وقال ابن كثير: «**وأول حجَّةٍ حجَّها في سنةِ سبعٍ وثمانين ومئة، ثم في سنةِ إحدىٰ**

وتسعين، وفيها حجَّ الوليدُ بن مسلم، ثم في سنةِ ستٍّ وتسعين وجاور إلىٰ سنة سبعٍ وتسعين، ثم حجَّ في سنة ثمانٍ وتسعين وجاور إلىٰ سنة تسعٍ وتسعين، وسافر إلىٰ عبد الرزَّاق باليمن فكتب عنه هو ويحيىٰ بن مَعين، وإسحاق بن راهويه، قال: وقد طاف أحمد بن حنبل في البلاد والأفاق، وسَمِعَ من مشايخ العصر، فكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ **أحد أكابر أوعية العلم وحُفَّاظ الأرض».**

قال ابن المديني: **«ليس في أصحابنا أحفظُ من أحمد».**

وقال عبد الله بن أحمد: **«قال لي أبي: خُذْ أيَّ كتابٍ شئت من كتب وكيع من المصنَّف فإن شئت أن تسألني عن الكلام حتىٰ أُخبرك بالإسناد، وإن شئت بالإسناد حتىٰ أُخبرك أنا بالكلام -أي بمتن الحديث-».**

وقال عبد الله بن أحمد: **«قال لي أبو زُرعة: أبوك يحفظ ألف ألف حديث، فقلت له: ما يُدريك؟ قال: ذاكرته فأخذت عليه الأبواب».**

قال الذهبي: **«هذه حكايةٌ صحيحة في سعة علم أبي عبد الله، وكانوا يعدُّون في ذلك المكرَّر، والأثر، وفتوىٰ التابعي، وما فُسِّر، ونحو ذلك، وإلا فالمتون المرفوعة القوية لا تبلغ عُشرَ معشار ذلك».**

وسُئل ابن أبي حاتم قال: **«قال سعيد بن عمرو: يا أبا زرعة؛ أأنت أحفظ أم أحمد؟ قال: بل أحمد».**

وقال إسحاق بن راهويه: **«كنت أُجالس أحمد وابن معين ونتذاكر فأقول: ما فقهه؟ ما تفسيره؟ فيسكتون إلا أحمد».**

قال أبو بكر الخَلَّال: **«كان أحمد قد كتب كتب الرأي وحفظها ثم لم يلتفت لها».**

وقال إبراهيم الحربي: «**رأيتُ أبا عبد الله كأن الله جمع له علم الأولين والآخرين**».

● **ولذلك ارتفعت منزلته عند العلماء، وعلا صِيتهُ في الآفاق وهو شابٌّ بعد.**

قال حرملة: «**سمعت الشافعي يقول: خَرجتُ من العراق فما خلَّفت بها رجلًا أفضل ولا أعلم ولا أورع ولا أتقىٰ من أحمد بن حنبل**».

وقال البخاري: «**لما ضُرِب أحمد بن حنبل كنا بالبصرة فسمعت أبا الوليد الطيالسي يقول: لو كان هذا في بني إسرائيل لكان أحدوثة**».

وقال أبو عُبيد القاسم بن سلَّام وهو أكبر من أحمد: «**لستُ أعلمُ في الإسلام مثله**».

وقال إسحاق الذي قال عنه الإمام أحمد: «**ما عبر الجسر إلىٰ خراسان مثل إسحاق**»، قال: «**أحمد بن حنبل حُجَّةٌ بين الله وبين عبيده في أرضه**».

وقال يحيىٰ بن مَعين إمامُ هذا الشأن: «**كان في أحمد خِصَالٌ ما رأيتها في عالمٍ قط؛ كان محدِّثًا، وكان حافظًا، وكان عالمًا، وكان ورعًا، وكان زاهدًا، وكان عاقلًا**».

وقال أبو بكر بن أبي داود: «**أحمد بن حنبل مُقدَّمٌ علىٰ كل من حمل بيده قلمًا ومحبرة**»، قال البيهقي: «**يعني في عصره**».

وقال عبد الله بن أحمد: «**سمعت أبي يقول: قدِمت صنعاء أنا ويحيىٰ بن معين فمضيت إلىٰ عبد الرزاق في قريتهِ وتخلَّف يحيىٰ، فلما ذهبت أدقُّ الباب قال لي بقَّالٌ تجاه داره: مَه لا تدُق فإن الشيخ يُهاب، قال: فجلست حتىٰ إذا كان قبل المغرب خرج، فوثبت إليه وفي يدي أحاديث انتقيتها فسلَّمت وقلت: حدِّثني**

بهذه رحمك الله فإني رجلٌ غريب، قال: ومَن أنت؟ وزبرني -أغلظ عليه القول-، فقلت: أنا أحمد بن حنبل، قال: فتقاصر وضمني إليه، وقال: بالله أنت أبو عبد الله؟ ثم أخذ الأحاديث، وجعل يقرؤها حتىٰ أظلم، ثم قال للبقَّال: هلمَّ المصباح حتىٰ خرج وقت المغرب -أي خرج أول وقتها-، قال: وكان عبد الرزاق يؤخر صلاة المغرب».

وقال المروزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«سمعت بعض الواسطيين -أي من أهل واسط- يقولون: ما رأينا يزيد بن هارون ترك المزاح لأحدٍ إلا لأحمد بن حنبل»** ويزيد شيخه إمام المسلمين في زمانه.

وقال أحمد بن سنان: **«ما رأيت يزيد لأحدٍ أشد تعظيمًا منه لأحمد ابن حنبل، ولا أكرم أحدًا مثله، كان يُقعده إلىٰ جنبه، ويوقِّره، ولا يمازحه».**

وقال عبد الرزَّاق: **«ما رأيت أحدًا أفقه ولا أروع من أحمد بن حنبل»**، قال الذهبي: **«قال هذا وقد رأىٰ مثل الثوري ومالك وابن جُريج».**

وقال حفص بن غِياث: **«ما قدِم الكوفة مثل أحمد».**

وقال قتيبة: **«خير أهل زماننا ابن المبارك، ثم هذا الشاب وأحمد أدركا ابن المبارك في آخر حياته ولم يَروِ عنه، أتىٰ بلدته وقد خرج للثغر ثم مات ابن المبارك، قال: وإذا رأيت رجلاً يُحب أحمد فاعلم أنه صاحب سنَّة، لو أدرك عصر الثوري والأوزاعي والليث لكان هو المقدَّم عليهم، فقيل لقتيبة: أيُضم أحمد إلىٰ التابعين؟ قال: إلىٰ كبار التابعين».**

وقال أبو عُبيد: **«إني لأتديَّن بذِكر أحمد، ما رأيت رجلًا أعلم بالسنَّة منه».**

وقال النُفيلي: **«كان أحمد من أعلام الدين».**

وقال أبو خَيثمة: «**ما رأيت مثل أحمد ولا أشد منه قلبًا**».

وقال ابن أبي حاتم: «**سألتُ أبي عن عليّ بن المديني وأحمد بن حنبل أيهما أحفظ؟ قال: كانا في الحفظ متقاربين وكان أحمد أفقه، إذا رأيت من يُحب أحمد فاعلم أنه صاحب سنَّة**».

وقال أبو زرعة: «**أحمد بن حنبل أكبر من إسحاق وأفقه، ما رأيت أحدًا أكمل من أحمد**».

وقال النسائي الإمام: «**جمع أحمد بن حنبل المعرفة بالحديث والفقه والورع والزهد والصبر**».

وقال ابن المديني: «**أحمد اليوم حُجَّة الله علىٰ خلقه**».

وقال أبو يحيىٰ الناقد: «**كنا عند إبراهيم بن عرعرة فذكروا يعلىٰ بن عاصم، فقال رجلٌ: أحمد بن حنبل يُضعِّفه، فقال رجلٌ: وما يضرُّه إذا كان ثقة؟ فقال ابن عرعرة: والله لو تكلم أحمد في علقمة والأسود لضرَّهما**» من علو مكانته.

وقال محمد بن نصر المروزي: «**سرت إلىٰ دار أحمد بن حنبل مرارًا وسألته عن مسائل فقيل له: أكان أكثر حديثًا أم إسحاق؟ قال: بل أحمد أكثر حديثًا وأورع، أحمد فاق أهل زمانه**».

قال الذهبي: «**كان أحمد عظيم الشأن، رأسًا في الحديث وفي الفقه وفيه التألُّه، أثنىٰ عليه خلقٌ من خصومه، فما الظنُّ بإخوانه وأقرانه؟! قال: وكان مَهيبًا في ذات الله حتىٰ لقال أبو عُبيد: ما هبت أحدًا في مسألةٍ ما هبت أحمد بن حنبل**».

قال أحمد بن القاسم المقرئ: «**سمعت الحسين الكرابيسي يقول: مثل الذين يذكرون أحمد بن حنبل -أي بسوء- مثل قومٍ يجيئون إلىٰ أبي قُبيس يُريدون أن**

يهدموه بنعالهم»، ولذلك قال ابن عقيل: **«من عجيب من سمعته عن هؤلاء الأحداث الجُهَّال أنهم يقولون: أحمد ليس بفقيه لكنه محدِّث»**، وهذه شنشنةٌ منتشرة عند كثيرٍ من الناس خاصةً في هذا العصر، يقول: **«من عجيب من سمعته عن هؤلاء الأحداث الجُهَّال أنهم يقولون: أحمد ليس بفقيه لكنه محدِّث، قال: وهذا غايةُ الجهل؛ لأن له اختيارات بناها علىٰ الأحاديث بناءً لا يعرفه أكثرهم، وربما زاد علىٰ كُبرائهم»**.

قال الذهبي معلِّقًا: **«أحسبهم يظنُّونه كان محدِّثًا وبس -لغة عامية؛ يعني فقط- بل يتخيلونه من بابة محدِّثي زماننا، والله لقد بلغ في الفقه خاصة رتبة الليث ومالك والشافعي وأبي يوسف، وفي الزهد والورع رتبة الفضل وإبراهيم بن أدهم، وفي الحفظ رتبة شعبة ويحيىٰ القطَّان وابن المديني، ولكنَّ الجاهل لا يعلم رتبة نفسه فكيف يعرف رتبة غيره؟!»**.

ولذلك ذكر الذهبي عن رجلٍ أنه قال: **«عندنا بخراسان يظنون أن أحمد لا يُشبه البشر، يظنون أنه من الملائكة»**.

وقال ابن كثير: **«وقد قال الشافعي لأحمد لما اجتمع به في الرحلةِ الثانية إلىٰ بغداد بعد سنة تسعين ومئة وعُمُرُ أحمد إذ ذاك نيِّفٌ وثلاثين سنة، قال له الشافعي: يا أبا عبد الله؛ إذا صحَّ عندكم الحديث فأعلمني به، قال ابن كثير: وقول الشافعي له هذه المقالة تعظيمٌ لأحمد وإجلالٌ له، وإنه عنده بهذه المثابة؛ إذا صحَّح أو ضعَّف يرجع إليه في ذلك»**، وقد كان الإمام أحمد بهذه المثابة عند الأئمة والعلماء كما سيأتي ثناء الأئمة عليه واعترافهم له بعلو المكانة، وارتفاع المنزلة في العلم والحديث -رَحِمَهُمْ اللهُ-، وقد بعُد صيته في زمانه واشتهر اسمه في شبيبته في الآفاق.

أما عقيدته رَحِمَهُ ٱللَّهُ رحمةً واسعة:

فالإمام أحمد كالإمام مالك، وكالإمام الشافعي، وكأئمة السنَّة السالفين رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ؛ أهلُ أثر واتباع، اعتقادهم ما نَطَقَ به الكتاب ودلَّت عليه السنَّة، فهم مجمعون علىٰ إثبات ما أثبته الله تعالىٰ لنفسه، وما أثبته له رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من الأسماء والصفات وأمور الإيمان وغير ذلك، مع ردِّهم للبِدَع والمحدثات؛ إذ هذا الباب باب تسليم واتباع، ليس للعقل فيه نظر ولا رأيٌّ إنما يُؤخذُ من جهة الخبر.

قال إبراهيم الحربي عن الإمام أحمد: «**كل شيءٍ أقول لكم: هذا قول أصحاب الحديث فهو قول أحمد بن حنبل، قال: هو ألقىٰ في قلوبنا منذ كنا غِلمانًا اتباع أحاديث النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأقاويل الصحابة، والاقتداء بالتابعين**»؛ أي غرس في قلوبنا اتباع الحديث، وأقاويل الصحابة، وأقاويل التابعين، فكل ما يأتي عنهم فهو مذهبه؛ لأنه ربَّىٰ أتباعه عليه.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**الأئمة المشهورين كلهم يُثبتون الصفات لله تعالىٰ ويقولون: إن القرآن كلام الله ليس بمخلوق، ويقولون: إن الله يُرَىٰ في الآخرة، قال: هذا مذهب الصحابة والتابعين لهم بإحسان من أهل البيت وغيرهم، وهذا مذهب الأئمة المتبوعين مثل: مالك بن أنس، والثوري، والليث بن سعد، والأوزاعي، وأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق**».

● والآثار الواردة عن الإمام في هذا لا تكاد تُحصىٰ؛ فهو إمام أهل السنة، بل محنته إنما كانت في هذا الأمر.

قال حنبل بن إسحاق: «سألت أبا عبد الله عن الأحاديث التي تُروىٰ عن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ يَنْزِلُ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا» [١] فقال: نؤمن بها، ونُصدِّق بها، ولا نرد شيئًا منها إذا كانت أسانيدَ صحاحًا، ولا نرد علىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قولًا، ونعلم أن ما جاء به حق».

وقال أبو داود: « سمعت أحمد بن حنبل يقول: الإيمان قولٌ وعمل يزيد وينقص، البِرُّ كله من الإيمان، والمعاصي تُنقص الإيمان».

وقال حنبل: «سمعت أبا عبد الله يقول: من أحب الكلام لم يُفلِح؛ لأنه يؤول أمرهم إلىٰ حيرة، عليكم بالسنَّة والحديث، وإياكم والخوضَ والجدال والمِرَاء، أدركنا الناس وما يعرفون هذا الكلام، عاقبةُ الكلام لا يؤول إلىٰ خير».

قال الذهبي: «وللإمام أحمد كلامٌ كثير في التحذير من البدع وأهلها، وأقوالٍ في السنَّة، قال: ومن نظر في كتاب السنَّة لأبي بكر الخلَّال رأىٰ فيه علمًا غزيرًا ونقلًا كثيرًا».

أما أخلاقه رَحِمَهُ اللهُ رحمةً واسعة:

فقال أبو بكر المروذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان أبو عبد الله لا يجهل، وإن جهل عليه أحد حَلُم واحتمل ويقول: يكفي الله، قال: ولم يكن بالحقود، ولا العجول، كثيرَ التواضع، حسن الخلق، دائم البِشْر، ليِّن الجانب، ليس بفظ، وكان يُحبُّ

(١)- أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (٤ / ٤٤٩) برقم: (٢٨٤٠).

في الله ويُبغضُ في الله، وإذا كان في أمرٍ من الدين اشتدَّ له غضبه، وكان يحتمل الأذىٰ من الجيران».

وقال الحُسين بن إسماعيل عن أبيه قال: **«كان يجتمع في مجلس أحمد زهاء خمسة آلاف يكتبون، يقول: نحو خمسمئة يكتبون والباقون يتعلَّمون منه حسن الأدب والسمت».**

وقال ابن المنادي عن جدِّه أبي جعفر: **«كان أحمد من أحيا الناس؛ أي حيِّيًا، وأكرمهم، وأحسنهم عشرةً وأدبًا، كثير الإطراق، لا يُسمَع منه إلا المذاكرة للحديث، وذِكرُ الصالحين في وقارٍ وسكون، ولفظٍ حسن، وإذا لقيه إنسان بشَّ به وأقبل عليه، وكان يتواضع للشيوخِ شديدًا، وكانوا يُعظِّمونه، وكان يفعل بيحيىٰ بن معين ما لم أره يعمل بغيره من التواضع والتكريم والتبجيل، وكان يحيىٰ أكبر منه بسبع سنين. قال: وكان أبو عبد الله شديد الحياء، كريم الأخلاق، يُعجبه السخاء».**

وقال الميموني: **«كثيرًا ما كنت أسأل أحمد عن الشيء فيقول: لبيك لبيك».**

وقال المروذي: **«لم أرَ الفقير في مجلسٍ أعزَّ منه في مجلس أحمد، كان مائلًا إليهم، مُقصرًا عن أهل الدنيا، وكان في حِلْم ولم يكن بالعجول، وكان كثير التواضع، تعلوه السكينة والوقار، وإذا جلس في مجلسه بعد العصر للفُتْيَا لا يتكلم حتىٰ يُسأل، وإذا خرج إلىٰ مسجده لم يتصدَّر».**

هذه أخلاقهُ خارج بيته.

وفي بيته أعظم من ذلك:

قال الخلَّال: «**سمعت المروذي يقول: سمعتُ أبا عبد الله يذكر أهله -أي أم عبد الله- قال: فترحَّم عليها وقال: مكثنا عشرين سنة ما اختلفنا في كلمة**».

وقال عبد الله بن أحمد: «**كان أبي إذا أتىٰ البيت من المسجد ضرب برجله حتىٰ يسمعوا صوت نعله، وربما تنحنح ليعلموا به**» وهذا من حسن المعاشرة والتلطُّف بالأهل؛ لأن بعض الناس يشك في أهله علىٰ الدوام، ويدخل عليهم خِلسة، ويُراقب كل شيء، ليس هذا من حسن الخلق، وكان كثير التواضع رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال عارِم: «**وضع أحمد عندي نفقته، فقلت له يومًا: يا أبا عبد الله، بلغني أنك رجلٌ من العرب. فقال: يا أبا النعمان، نحن قوم مساكين فلم يزل يدافعني حتىٰ خرج ولم يقل لي شيئًا**» فالفضل ليس بالجنس، إنما الفضل عند الله بالتقوىٰ، فلا يفخر بعضٌ علىٰ بعض.

قال يحيىٰ بن معين: «**ما رأيت مثل أحمد صحبناه خمسين سنة ما افتخر علينا بشيءٍ مما كان فيه من الخير، وكان يكره الشهرةَ جدًّا، وكان يقول: لو وجدت السبيل لخرجت حتىٰ لا يكون لي ذِكر**».

وكان يقول: «**أُريد أن أكون في شِعْبٍ بمكة حتىٰ لا أُعرَف، قد بُليت بالشهرة حتىٰ أتمنَّىٰ الموت صباحًا ومساءً**» حب الشهرة يقصم الظهور، وما أفلح عبدٌ أحب الشهرة قط، وليس بعالمٍ حقًّا من يُحب الشهرة.

من الوقفات العظيمة في العلم:

قولُ عبد الله بن محمد الورَّاق: «**كنت في مجلس أحمد بن حنبل فقال: من أين أقبلتم؟ قال: من مجلس أبي كريب فقال: اكتبوا عنه، فإنه شيخٌ صالح، فقلنا: إنه يطعن عليك، فقال: فأيُّ شيءٍ حيلتي؟ شيخٌ صالح قد بُلِيَ بي**» مَن يقصد وجه الله لا ينتقم لنفسه إنما ينظر في النفع العام للناس من ماذا ينتفعون؟ هذا رجلٌ عالم عنده حديث وعنده سنَّة ولكن يطعن فيمن؟ يقع في إمام المسلمين، لم ينتصر لنفسه ويقول: دعوه، إنما قال: اكتبوا عنه فإنه شيخٌ صالح، فقال: فما حيلتي في شيخٌ صالح قد بُلِيَ بي.

وأما زهده وتركه للدنيا وإيثارهُ الفقر:

فقال عبدُ الرزَّاق وقد ذكر أحمد بن حنبل ودمعت عيناه فقال: «**إن نفقته نفذت، فأخذتُ بيده فأقمته خلف الباب وما معنا أحد، فقلت له: إنه لا تجتمع عندنا الدنانير إذا بعنا الغَلَّة أشغلناها في شيء، وقد وجدتُ عند النساء عشرة دنانير فخذها، وأرجو ألا تُنفقها حتىٰ يتهيأ شيء، فقال لي: يا أبا بكر؛ لو قبلت من أحدٍ شيئًا قبلت منك**».

وقال عبد الله: «**قلت لأبي: بلغني أن عبد الرزاق عرض عليك دنانير، قال: نعم، وأعطاني يزيد بن هارون خمسمئة درهم فلم أقبل، وأعطىٰ يحيىٰ بن معين وأبا مسلم فأخذا منه**».

وقال عبد الله بن أحمد: «**سمعت أبي وذكر الدنيا فقال: قليلها يُجزئ وكثيرها لا يُجزئ**».

وقال صالح: «**ربما رأيت أبي يأخذ الكِسْر -أي من الأرض أو من مكانٍ آخر مما بقي من الخبز- ينفض الغبار عنها ويُصيِّرها في قصعة ويصب عليها الماء ثم يأكلها بالملح، وما رأيته اشترىٰ رمانًا ولا سفرجلًا ولا شيئًا من الفاكهة إلا أن تكون بطيخة فيأكلها بخبز وعنبًا وتمرًا**».

قال: «**وقال لي: كانت والدتك في الظلام تغزل غزلًا دقيقًا فتبيع الأستار بدرهمين أو أقل أو أكثر، فكان ذلك قوتنا، وكان يأتدم بالخل كثيراً**».

قال: «**وقال لي أبي: إذا لم يكن عندي قطعةٌ أفرح**» إذا ما عندي شيء أفرح.

وقال حمدان بن علي: «**لم يكن لباس أحمد بذاك إلا أنه قطنٌ نظيف**».

قال ابن كثيرة: «**وقد صنّف في الزهد كتابًا حافلًا عظيمًا لم يُسبق إلىٰ مثله، ولم يلحقه أحدٌ فيه، والمظنون بل المقطوع به أنه كان يأخذ بما أمكنه من ذلك -رَحِمَهُ اللهُ، وأكرم مثواه، وجعل جنَّة الفردوس منقلبه ومأواه-**».

● **ومع شديد فقره رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقلَّة ذات يده كان من أعظم الناس كرمًا:**

قال عبد الله بن أحمد: «**قال أبو سعيد بن أبي حنيفة المؤذِّن: كنت آتي أباك فيدفع إلي الثلاثة دراهم وأقل وأكثر ويقعد معي فيتحدث وربما أعطاني شيء، ويقول: أعطيتك نصف ما عندنا، قال: فجئت يومًا فأطلت القعود أنا وهو -يعني كأنه يريد أن يسأله شيئًا- قال: ثم خرج ومعه تحت كسائه أربعة أرغفة فقال: هذا نصف ما عندنا، فقلت: هي أحب إليَّ من أربعة آلافٍ من غيرك**».

وقال المروذي: «**رأيتُ أبا عبد الله وجاءه بعض قرابته فأعطاه درهمين، وأتاهُ**

رجل فبعث إلىٰ البقال فأعطاه نصف درهم».

وقال يحيىٰ بن هلال: **«جئت أحمد فأعطاني أربعة دراهم».**

وقال هارون المستملي: **«لقيت أحمد بن حنبل فقلت: ما عندنا شيء فأعطاني خمسة دراهم وقال: ما عندنا غيرها».**

وقال المروذي: **«رأيت أبا عبد الله قد وهب لرجلٍ قميصه، قال: وربما واسىٰ من قوته، وإذا جاءه أمرٌ يهمه من أمر الدنيا -أي حد محتاج شديد الحاجة- لم يُفطِر وواصل».**

وجاء أبو سعيد الضرير وكان قال قصيدةً في ابن أبي دؤاد؛ أي يهجوه لشدَّة عداوته للإمام أحمد، فشكا إلىٰ أبي عبد الله فقال: **«يا أبا سعيد ما عندنا إلا هذا الجذع، فجيء بحمَّالٍ فقال: فبعته بتسعة دراهم و دانقين».**

أما عبادته رَحِمَهُ ٱللَّهُ فكانت عجب:

قال إبراهيم ابنُ هانئ: **«كان أبو عبد الله حيث توارىٰ من السلطان عندي، قال: وذكر من اجتهاده في العبادة أمرًا عجبًا، قال: وكنت لا أقوىٰ معه علىٰ العبادة، وأفطرَ يومًا واحدًا واحتجم».**

وقال عبد الله بن أحمد: **«كان أبي يُصلي في كل يومٍ وليلة ثلاثمئة ركعة، فلما مرض من تلك الأصوات وأضعفته فكان يُصلي كل يومٍ وليلة مئة وخمسين ركعة، قال: وكان أبي يقرأ كل يوم سُبُعًا، وكان ينام نومةً خفيفة بعد العشاء ثم يقوم إلىٰ الصباح يُصلي ويدعو».**

وقال المروذي: «رأيت أبا عبد الله يقوم لورده قريبًا من نصف الليل حتىٰ يُقارب السحر، ورأيته يركع فيما بين المغرب والعشاء».

وقال عبد الله ابنه: «ربما سمعت أبي في السحر يدعو لأقوام بأسمائهم، وكان يُكثر الدعاء ويُخفيه، ويُصلي بين العشاءين، فإذا صلَّىٰ العشاء الآخرة ركع ركعاتٍ صالحة ثم يوتر وينام نومةً خفيفة ثم يقوم فيُصلي، وكان يصوم ويُدمن، ثم يُفطر ما شاء الله، ولا يترك صوم الاثنين والخميس وأيام البيض، فلما رجع من العسكر أدمن الصوم إلىٰ أن مات، وكان يُربي من عنده علىٰ هذا».

قال عاصم بن عصام البيهقي: «بِتُّ ليلةً عند أحمد بن حنبل فجاء بماءٍ فوضعه، فلما أصبح نظر إلىٰ الماء بحاله فقال: سبحان الله! رجلٌ يطلب العلم لا يكون له وردٌ بالليل؟!».

وقال صالح: «سمعت أبي كثيرًا يتلو سورة الكهف، وكثيرًا ما كنت أسمعه يقول: اللهم سلِّم سلِّم، وكان يختم القرآن من الجمعة إلىٰ الجمعة، وإذا ختم دعا ونحن نؤمِّن».

● وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يسترُ عبادته:

قال المروذي: «رأيت أبا عبد الله إذا كان في البيت عامة جلوسه متربِّعًا خاشعًا، فإذا كان برَّا -أي خارج البت- لم يتبيَّن منه شدَّة خشوع، وكنت أدخل والجزء في يده يقرأ».

وقال صالح ابنه: «سمعت أبي يقول -جد ابن صالح يقول عن أبيه-: كان أحمد إذا رأيته تعلم أنه لا يُظهر النُسك، رأيت عليه نعلًا لا يُشبه نعال القرَّاء».

ومن أحواله العجيبة في بيته وعمله فيه:

قال صالح ابن أحمد: «**كان أبي لا يدع أحدًا يستسقي له الماء، بل كان يلي ذلك بنفسه، فإذا خرج الدلو ملآنًا قال: الحمد لله، فقلت: يا أبي ما الفائدة من ذلك؟ فقال: يا بني؛ أما سمعت قول الله -عَزَّ وَجَلَّ-:** ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠]».

قال الميموني: «**ما رأيت أني رأيت أحدًا أنظف بدنًا ولا أشدَّ تعاهدًا لنفسه وشاربه وشعره وشعر بدنه منه، ولا أنقىٰ ثوبًا بشدَّة بياضٍ من أحمد بن حنبل، وكانت له قلنسوة خاطها بيده فيها قطن، فإذا قام بالليل لبسها، قال: وكان ربما أخذ القَدوم -أي الفأس- وخرج إلىٰ دار السُكَّان يعمل الشيء بيده، وكان يُزعجه أن يثنىٰ عليه**».

قال المروذي: «**قلت لأبي عبد الله: ما أكثر الداعي لك؟ قال: أخاف أن يكون هذا استدراجًا، بأي شيءٍ هذا؟**» أي ما أستحق، وقلت لأبي عبد الله: «**إني لأرجو أن يكون يُدعىٰ لك في جميع الأمصار، فقال: يا أبا بكر؛ إذا عرف الرجل نفسه فما ينفعه كلام الناس؟!**».

وقال صالح: «**كان أبي إذا دعا له رجل قال: ليس يُحرز الرجل المؤمن إلا حفرته، الأعمال بخواتيمها**».

وكان مستجاب الدعوة ووقائع السيرة في هذا كثيرة:

قال عبَّاس الدوري: «**حدَّثنا عليّ بن أبي فزارة وهو جارنا قالت: كانت أمي مقعدة من نحو عشرين سنة، فقالت لي يومًا: اذهب إلىٰ أحمد بن حنبل فسله أن يدعو لي، فقال: فأتيت فدخلت عليه وهو في دهليزه، فقال: مَن هذا؟ قلت: رجل سألتني أمي وهي مقعدة أن أسألك الدعاء، قال: فسمعت كلامه كلام رجل مغضب يقول: نحن أحوج أن تدعو الله لنا، قال: فوليت منصرفًا، فخرجت عجوزٌ فقالت: قد تركته يدعو لها، فجئت إلىٰ بيتنا ودققت الباب، فخرجت أمي علىٰ رجليها تمشي**». قال الذهبي: «**هذه الواقعة نقلها ثقتان عن عبَّاس**».

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ شديد الاتباع للسنَّة، شديد العمل بها:

قال المروذي: «قال لي أحمد: ما كتبتُ حديثًا إلا وقد عملت به حتىٰ مرَّ بي أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ احتجم وأعطىٰ أبا طيبة دينارًا فأعطيتُ الحجام دينارًا حين احتجمت».

وقال: «قلت لأبي عبد الله: مَن مات علىٰ الإسلام والسنَّة مات علىٰ الخير؟ قال: اسكت، مات علىٰ الخير كله».

وقال الفضل بن زياد: «سمعتُ أحمد بن حنبل يقول: من ردَّ حديث رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو علىٰ شفا هلكة».

وقال صالح بن أحمد: «مضيتُ مع أبي يوم جمعةٍ إلىٰ الجامع فوافقنا الناس قد انصرفوا، فدخل إلىٰ المسجد وكان معنا إبراهيم بن هانئ فتقدَّم أبي فصلَّىٰ بنا الظهر أربعًا، ثم قال: قد فعله ابن مسعود بعلقمة والأسود، قال: وكان أبي إذا دخل مقبرةً خلع نعليه وأمسكهما بيده، ولما فرَّ من الواثق اختبأ عند ابن هانئ ثم مكث عنده ثلاثًا، ثم قال له: ابغِ لي مكانًا، فقال: إني أخشىٰ عليك، قال: ابغِ لي مكانًا وسأفيدك فائدة، قال: فابتغيت له مكانًا فقال: إن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكث في الغارِ ثلاثًا ثم تحوَّل، ولا ينبغي للرجل أن يستمسك بالسنَّة عند الرخاء ويدعَها عند الشدَّة».

وقال عبد الله في مرض موت أبيه ودخول الناس أفواجًا عليه للسلام والزيارة، قال: **«وجاء رجلٌ جارٌ لنا قد خضب -أي غيَّر بياض لحيته إلىٰ غير السواد- فقال أبي: إني لأرىٰ الرجل يُحيي شيئًا من السنَّة فأفرح به، ولما حضرته الوفاة وهو في سكرات الموت أمر أهله أن يوضئوه فقام صالح وعبد الله يوضئونه، فجعل يُشير إليهم أن خلِّلوا الأصابع»**.

قال عليُّ بن عبد الصمد الطيالسي: **«مسحت يدي علىٰ أحمد بن حنبل وهو ينظر -لأن بعض الناس يقول: نتبرَّك- فغضب وجعل ينفض يده يقول: عمن أخذتم هذا؟ عمن أخذتم هذا؟ عليك بالاتباع»**، قال الثوري: **«إن استطعت ألا تحكَّ رأسك إلا بأثر فافعل»**.

وامتُحِنَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الدين والدنيا، وكان يقول: **«تمنيتُ الموت وهذا أمرٌ أشدُّ عليَّ من ذلك، ذاك فتنة الضرب والحبس كنت أحمله، وهذه فتنة الدنيا»**.

جاءته الأموال فردَّها، وجاءتها الدنيا فرفضها، وكان يقول: **«والله لقد تمنيت الموت في الأمر الذي كان، وإني لأتمنَّىٰ الموت في هذا وذاك، إن هذا فتنةَ الدنيا وذاك كان فتنةَ الدين»**.

وأما ذِكرهُ للآخرة والموت:

فقال المروذي: «**كان أبو عبد الله إذا ذكر الموت خنقته العبرة**».

وقال أبو داود: «**كانت مجالس أحمد مجالس الآخرة لا يُذكرَ فيها شيءٌ من أمر الدنيا، وما رأيت أحمد بن حنبل ذكر الدنيا قط**».

وقال المروذي: «**بال أبو عبد الله في مرض الموت دمًا عبيطًا، فأريته الطبيب، فقال: هذا رجل قد فتَّت الخوف جوفه**».

وكان يقول: «**الخوف يمنعني أكل الطعام والشراب، إذا ذكرتُ الموت هان عليَّ كل أمر الدنيا، إنما هو طعامٌ دون طعام، ولباسٌ دون لباس، وإنها أيامٌ قلائل ما أَعْدِلُ بالفقر شيئًا، ولو وجدت السبيل لخرجت حتىٰ لا يكون لي ذِكر**».

وكان يُحب الخمول والانزواء، وكان يعود المريض، وكان يكره أن يمشي في الأسواق، ويؤثر الوحدة:

وقال محمد بن حسن بن هارون: «**رأيت أبا عبد الله إذا مشىٰ في الطريق يكره أن يتبعهُ أحد**».

قال الذهبي: «**إيثار الخمول والتواضع وكثرة الوجل من علامات التقوىٰ والفلاح**».

وكان لا يَرى لنفسه حالة:

قال محمد بن موسىٰ: «رأيت أبا عبد الله وقد قال له خرساني: الحمد لله الذي رأيتُك، قال: اقعد أيُّ شيءٍ ذاك، مَن أنا؟».

وقال له رجل وقد أثنىٰ عليه: «جزاك الله عن الإسلام خيرًا، فقال: بل جزا الله الإسلام عني خيرًا، مَن أنا؟ وما أنا؟».

وكان لا يغتر حتى بالمُبَشِّراتِ من الرؤى:

قال المروذي: «أدخلت إبراهيم الحصري علىٰ أبي عبد الله وكان رجلًا صالحًا، قال: إن أمي رأت لك منامًا هو كذا وكذا وذكر في الجنة، فقال: يا أخي؛ إنَّ سهل بن سلامة كان الناس يُخبرونه بمثل هذا وخرج إلىٰ سفك الدماء، الرؤيا تسرُّ المؤمن ولا تغرُّه».

● وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا جاءته فرصةٌ من العلم قدَّمه علىٰ غيره من النفل:

قال عبد الله بن أحمد: «لمَّا قدِم أبو زرعة نزل عند أبي فكان كثير المذاكرة له، فسمعت أبي يومًا يقول: ما صليتُ اليوم غير الفريضة، استأثرتُ بمذاكرة أبي زرعة علىٰ نوافلي».

وكان شديدَ القلب في الحق:

قال محمد بن إبراهيم بن مصعب صاحبُ شرطة المعتصِم : «**ما رأيتُ أحدًا لم يُداخل السلطان ولا خالط الملوك كان أثبتَ قلبًا من أحمد يومئذٍ -أي يوم المحنة- قال: ما نحن في عينهِ إلا كأمثال الذباب**».

وقال ابن أبي دُؤاد: عدُّوه اللدود الوزير صاحب الشأن والقضاء: «**ما رأيتُ أحدًا أشدَّ قلبًا من هذا -يعني أحمد-، كنا نُكلِّمه وجعل الخليفة يُكلمه، يُسميه مرة، ويَكنِيه مرة، وهو يقول: يا أمير المؤمنين؛ أوجد لي شيئًا من كتاب الله أو سنَّة رسول الله حتىٰ أُجيبك إليه**».

ومن الأصول التي كان يغرسها في أتباعه وتدل على عمق علمه:

قول الميموني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«قال لي أحمد: يا أبا الحسن؛ إياك أن تتكلم في مسألةٍ ليس لك فيها إمام»**، الدين يُهدَم إذا تُرِك هذا الأصل، النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لم يُثنِ علىٰ القرون المفضلة عبثًا إنما هم خير الأمة، ولذلك تتابعت أقوال الأئمة أنه لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ في سبيل نيل رضاه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة:١٠٠] فمن جاء بعد الصحابة لن ينال الرضا إلا إذا اتبعهم بإحسان، إياك أن تتكلَّم في مسألة ليس لك فيها إمام، اتبع ولا تبتدع كما قال ابن مسعود: **«اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كُفيتم»**، وكان يقول: **«إنا نقتدي ولا نبتدي، ولن نَضلَّ ما تمسَّكنا بالأثر»**.

أما محنتهُ ثم وفاتهُ نختمُ بها هذه المجالس:

قال الذهبيُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**كان الناس أمةً واحدة ودينهم قائمًا في خلافة أبي بكرٍ وعمر، فلما استُشهد قُفْلُ باب الفتنة عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وانكسر الباب قامَ رؤوسُ الشرِّ علىٰ الشهيد عثمان حتىٰ ذُبِح صَبرًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، وتفرَّقت الكلمة، وتمَّت وقعة الجمل، ثم وقعة صفين، فظهرت الخوارج وكفَّرت سادة الصحابة، ثم ظهرت الروافض والنواصب.وفي آخر زمن الصحابة ظهرت القدرية، ثم المعتزلة بالبصرة، والجهمية والمجسِّمة بخراسان في أثناء عصر التابعين مع ظهورِ السنَّة وأهلها إلىٰ بعد المئتين، فظهر المأمون الخليفةُ وكان ذكيًّا متكلِّمًا، له نظرٌ في المعقول، فاستجلب كتب الأوائل، وعرَّبَ حكمة اليونان، وقام في ذلك وقعد، وخبَّ ووضع، ورفعت الجهميةُ والمعتزلةُ رؤوسها، وآل به الحالُ إلىٰ أن حمل الأمة علىٰ القول بخلق القرآن، وامتحن العلماء، فلم يُمهَل -أي أُخذ- قال: وهلك لعامه، وخلَّىٰ بعده شرًّا وبلاءً في الدين؛ فإن الأمة ما زالت علىٰ أن القرآن العظيم كلامُ الله تعالىٰ ووحيه وتنزيله، لا يعرفون غير ذلك حتىٰ نبغ لهم القول بأنه كلام الله مخلوقٌ مجعول، وأنه إنما يُضاف إلىٰ الله تعالىٰ إضافة تشريف كبيت الله وناقة الله، فأنكر ذلك العلماء**».

وكان المأمون متوقفًا في الدعاء إلىٰ بدعته، قال ابن الجوزي: «**خالطه قومٌ من المعتزلة**» وهذا فيه شؤم أهل البِدَع علىٰ الولاة، وعِظَمُ شرِّهم، قال: «**فحسنوا له القول بخلق القرآن، وكان يتردد ويراقب بقايا الشيوخ، ثم قوي عزمه وامتحن الناس**».

قال ابنُ أكثم: «**قال لنا المأمون: لولا مكان يزيد بن هارون لأظهرت أن القرآن مخلوق**» ويزيد بن هارون شيخ الإمام أحمد، وهو الذي كان يُجلُّه أعظم تبجيل، فقال له بعض جلسائه: يا أمير المؤمنين، ومَن يزيد حتىٰ يُتقىٰ! فقال: ويحك إني أخاف أن أظهرته فيرد عليّ ويختلفُ الناس وتكون فتنة وأنا أكره الفتنة.

قال المروذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:سمعت أبا عبد الله يقول: «**أَرَادَ ذَاكَ الَّذِي بِخُرَاسَانَ وَمَاتَ بِالثَّغْرِ -يعني المأمون- أَنْ يُحَدِّثَ هَا هُنَا بِشَيءٍ، وَكَانَ يَزِيْدُ بنُ هَارُوْنَ حَيًّا، فَكُتِبَ إِلَيْهِ: إِنَّ يَزِيْدَ حَيٌّ، وَإِنْ قَالَ: لاَ، فَهُوَ لاَ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ، فَلَمْ يُظهِرْ شَيْئًا حَتَّىٰ مَاتَ يَزِيْدُ**».

قال ابنُ كثير: «**كان قد اجتمع به واستحوذ عليه جماعةٌ من المعتزلة، فأزاغوه عن طريق الحق إلىٰ الباطل وزيَّنوا له القول بخلق القرآن ونفي الصفات عن الله -عَزَّ وَجَلَّ-**».

قال البيهقي: «**وَلَمْ يَكُنْ فِي الْخُلَفَاءِ قَبْلَهُ لَا فِي بَنِي أُمَيَّةَ وَلَا مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ خَلِيفَةٌ إِلَّا عَلَىٰ مَنْهَجِ السَّلَفِ، حَتَّىٰ وَلِيَ هُوَ الْخِلَافَةَ، فَاجْتَمَعَ بِهِ هَؤُلَاءِ فَحَمَلُوهُ عَلَىٰ ذَلِكَ**».

وهذه المحنة قال عنها ابنُ كثير: «**فِي أَيَّامِ الْمَأْمُونِ ثُمَّ الْمُعْتَصِمِ ثُمَّ الْوَاثِقِ بسبب القرآن وَمَا أَصَابَهُ مِنَ الْحَبْسِ الطَّوِيلِ وَالضَّرْبِ الشَّدِيدِ وَالتَّهْدِيدِ بِالْقَتْلِ بِسُوءِ الْعَذَابِ وَأَلِيمِ الْعِقَابِ، وَقِلَّةِ مبالاته بما كان منهم من ذَلِكَ إليه وصبره عليه، وتمسُّكه بما كان عليه من الدين القويم والصراط المستقيم**».

واتفق وقتَ إظهاره لهذه المقولة الكفرية الشنيعة أن خرج إلىٰ طرسوس لغزو بلاد الروم، فعنَّ له أن يكتب إِلَىٰ نَائِبِ بَغْدَادَ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ يَأْمُرُهُ أَنْ يَدْعُوَ النَّاس إلىٰ الْقَوْلِ بخلق القرآن ، سَنَةِ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ وَمِائَتَيْنِ. فَلَمَّا وَصَلَه الْكِتَابُ

اسْتَدْعَىٰ إسحاق بن إبراهيم جَماعَةً مِنْ أَئِمَّةِ الْحَدِيثِ فَدَعَاهُمْ إِلَىٰ ذَلِكَ فَامْتَنَعُوا، فَتَهَدَّدَهُمْ بِالضَّرْبِ وَقَطْعِ الْأَرْزَاقِ فأجاب أكثرهم مُكْرَهين.

قَالَ صَالِحٌ: ثُمَّ امْتُحِنَ القَوْمُ، وَوُجِّهَ بِمَنْ امتنع إِلَىٰ الحَبْسِ، فَأَجَابَ القَوْمُ جَمِيْعًا غَيْرَ أَرْبَعَةٍ.

قَالَ أَبُو مَعْمَرٍ القَطِيْعِيُّ: لَمَّا أُحْضِرنَا إِلَىٰ دَارِ السُّلْطَانِ أَيَّامَ المِحْنَةِ، وَكَانَ أَحْمَدُ قد أحْضِرَ، فَلَمَّا رَأَىٰ النَّاسَ يُجِيْبُوْنَ، وَكَانَ رَجُلًا لَيِّنًا، انتفَخَتْ أَوْدَاجُه، وَاحْمَرَّتْ عَينَاهُ، وَذَهَبَ ذَلِكَ اللِّيْنُ.

فَقُلْتُ: إِنَّه قَدْ غَضِبَ للهِ، ثم قُلْتُ: أَبْشِرْ، حَدَّثَنَا ابْنُ فُضَيْلٍ، عَنِ الوَلِيْدِ بنِ عَبْدِ اللهِ بنِ جُمَيْعٍ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، قَالَ: كَانَ مِن أَصْحَابِ رَسُوْلِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ إِذَا أُرِيدَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِن أَمرِ دِينِه، رَأَيْتَ حَمَالِيْقَ عَيْنَيْهِ فِي رَأْسه تَدُورُ كَأَنَّه مَجنُوْنٌ.

قال: وَسَمِعْتُ ابْنَ أَبِي أُسَامَةَ يَقُوْلُ: حُكِيَ لَنَا أَنَّ أَحْمَدَ قِيْلَ لَهُ أَيَّامَ المِحْنَةِ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، أَوَلاَ تَرَىٰ الحَقَّ كَيْفَ ظَهرَ عَلَيْهِ البَاطِلُ؟ قَالَ: كَلاَّ، إِن ظُهورَ البَاطِلِ عَلَىٰ الحَقِّ أَنْ تَنْتَقِلَ القُلُوْبُ مِنَ الهُدَىٰ إِلَىٰ الضَّلاَلَةِ، وَقُلُوْبُنَا بَعْدُ لاَزِمَةٌ لِلْحَقِّ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بنُ إِبْرَاهِيْمَ البُوْشَنْجِيُّ: جَعلُوا يُذَاكِرُوْنَ أَبَا عَبْدِ اللهِ بِالرَّقَّةِ فِي التَّقِيَّةِ وَمَا رُوِيَ فِيْهَا -يعني يُريدونه أن يتأوّل ويُجيب تقيةً- فَقَالَ: كَيْفَ تَصْنَعُوْنَ بِحَدِيْثِ خَبَّابٍ: «**إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانَ يُنْشَرُ أَحَدُهُمْ بِالمِنْشَارِ، لاَ يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِيْنِهِ**»[2] قال: فَأَيِسنَا مِنْهُ.

فاستمر علىٰ الامتناع في ذلك، وامتنع معه محمد بن نوح فحُمِل علىٰ بعيرٍ وسُيِّر إلىٰ الخليفة بأمره وَهُمَا مُقَيَّدَانِ مُتَعَادِلاَنِ فِي مَحْمَلٍ عَلَىٰ بَعِيرٍ وَاحِدٍ فَلَمَّا

(٢)أخرجه البخاري في صحيحه (٤ / ٢٠١) برقم: (٣٦١٢).

كانا ببلاد الرحبة جاء رَجُلٌ مِنَ الْأَعْرَابِ مِنْ عُبَّادِهِمْ يُقَالُ لَهُ جَابِرُ بْنُ عَامِرٍ، فَسَلَّمَ عَلَىٰ الْإِمَامِ أَحْمَدَ، وَقَالَ لَهُ: يَا هَذَا إِنَّكَ وَافِدُ النَّاسِ فلا تكن مشؤمًا عَلَيْهِمْ، وَإِنَّكَ رَأْسُ النَّاسِ الْيَوْمَ فَإِيَّاكَ أَنْ تجيب فيجيبوا، وَإِنْ كُنْتَ تُحِبُّ اللهَ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أنت فيه، فإنمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلَّا أَنْ تُقْتَلَ، وَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُقْتَلْ تَمُتْ، وَإِنْ عِشْتَ عشت حَمِيدًا. فقال الإمام أحمد: فكان ذلك ما قوَّىٰ عَزْمِي عَلَىٰ مَا أَنَا فِيهِ مِنَ الامتناع من ذلك.

قَالَ صَالِحُ: حُمِلَ أَبِي وَمُحَمَّدُ بنُ نُوْحٍ مِنْ بَغْدَادَ مُقَيَّدَيْنِ، فَصِرنَا مَعَهُمَا إِلَىٰ الأَنْبَارِ، فَسَأَلَ أَبُو بَكْرٍ الأَحْوَلُ أَبِي: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، إِنْ عُرِضتَ عَلَىٰ السَّيْفِ تُجيبُ؟ قَالَ: لاَ. فمات المأمون قبل وصول الإمام أحمد عليه، ثُمَّ جَاءَ الْخَبَرُ بِأَنَّ الْمُعْتَصِمَ قَدْ وَلِيَ الْخِلَافَةَ وَقَدِ انْضَمَّ إِلَيْهِ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دُؤَادٍ، وَأَنَّ الْأَمْرَ شَدِيدٌ، قال فَرَدُّونَا إِلَىٰ بَغْدَادَ فِي سفينة الأسارىٰ، ونالني منهم أَذًىٰ كَثِيرٌ، وَكَانَ فِي رِجْلَيْهِ الْقُيُودُ، وَمَاتَ صَاحِبُهُ مُحَمَّدُ بْنُ نُوحٍ فِي الطَّرِيقِ وَصَلَّىٰ عَلَيْهِ أَحْمَدُ.

قَالَ حَنْبَلُ: قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ يقول: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا عَلَىٰ حداثَةِ سِنِّهِ، وَقدْرِ عِلمِه أقومَ بأمرِ اللهِ مِنْ مُحَمَّدِ بنِ نُوْحٍ، إِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَكُوْنَ قَدْ خُتمَ لَهُ بِخَيْرٍ، قَالَ لِي ذَاتَ يَوْمٍ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، الله الله، إِنَّكَ لَسْتَ مِثْلِي، أَنْتَ رَجُلٌ يُقْتَدَىٰ بِكَ، قَدْ أَمَدَّ الخَلْقُ أعناقَهُم إِلَيْكَ، لِمَا يَكُوْنُ مِنْكَ، فَاتَّقِ اللهَ، وَاثبُتْ لأمرِ اللهِ، فَمَاتَ وَصَلَّيْتُ عَلَيْهِ، وَدَفنتُه.

فَلَمَّا رَجَعَ أَحْمَدُ إِلَىٰ بَغْدَادَ دخلها و هو مريض و كان ذلك في رمضان، فأودع السِّجْنَ نَحْوًا مِنْ ثَمَانِيَةٍ وَعِشْرِينَ شَهْرًا، وَقِيلَ: نَيِّفًا وَثَلَاثِينَ شَهْرًا، ثُمَّ أُخْرِجَ إِلَىٰ الضَّرْبِ بين يدي المعتصم، وكان قد زيد في قيوده وقد بُعِثَ إليه من يُناظره،

قال أحمد: ثم جاؤني بِدَابَّةٍ فَحُمِلْتُ عَلَيْهَا فَكِدْتُ أَنْ أَسْقُطَ عَلَىٰ وَجْهِي مِنْ ثِقَلِ الْقُيُودِ وَلَيْسَ مَعِي أَحَدٌ يُمسكني، فسلَّم الله حتىٰ جئنا دار الخلافة فَأُدْخِلْتُ فِي بَيْتٍ وَأُغْلِقَ عليَّ وَلَيْسَ عِنْدِي سِرَاجٌ، فَأَرَدْتُ الْوُضُوءَ فَمَدَدْتُ يَدِي فَإِذَا أنا بِإِنَاءٌ فيه ماء فتوضأت منه، ثم قمت أُصلِّي وَلَا أَعْرِفُ الْقِبْلَةَ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ إِذَا أَنَا علىٰ القبلة ولله الحمد.

قال: ثُمَّ دُعِيتُ فَأُدْخِلْتُ عَلَىٰ الْمُعْتَصِمِ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيَّ وَعِنْدَهُ ابْنُ أَبِي دُؤَادٍ قَالَ: أَلَيْسَ قَدْ زَعَمْتُمْ أَنَّهُ حَدَثُ السِّنِّ وَهَذَا شَيْخٌ مكتهل؟ فَلَمَّا دَنَوْتُ مِنْهُ وَسَلَّمْتُ قَالَ لِي: ادْنُهْ، فَلَمْ يَزَلْ يُدْنِينِي حَتَّىٰ قَرُبْتُ مِنْهُ ثُمَّ قَالَ: اجْلِسْ! فَجَلَسْتُ وَقَدْ أَثْقَلَنِي الْحَدِيدُ، فَمَكَثْتُ قليلًا ثم قُلْتُ: أَتَأْذَنُ فِي الكَلَامِ؟

قَالَ: تَكَلَّمْ. فَقُلْتُ: إِلَىٰ مَا دَعَا اللهُ وَرَسُوْلُه؟ فَسَكَتَ هُنَيَّةً، ثُمَّ قَالَ: إِلَىٰ شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ. فَقُلْتُ: فَأَنَا أشهدُ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ. ثُمَّ قال: إِنَّ جدَّك ابْنَ عَبَّاسٍ يَقُوْلُ: لَمَّا قَدِمَ وَفْدُ عَبْد القيسِ عَلَىٰ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ سَأَلهم عَنِ الإِيْمَانِ، فَقَالَ: «**أَتَدْرُوْنَ مَا الإِيْمَانُ؟**» قَالُوا: اللهُ وَرَسُوْلُه أَعْلَمُ. قَالَ: «**شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُوْلُ اللهِ، وَإِقَامُ الصَّلاَةِ، وَإِيْتَاءُ الزَّكَاة**» [٣] فَقُلْتُ: فَهَذَا الَّذِي دَعَا إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

قَالَ: ثُمَّ تَكَلَّمَ ابْنُ أَبِي دُؤَادٍ بِكَلَامٍ لَمْ أَفْهَمْهُ، ثُمَّ قَالَ الْمُعْتَصِمُ: لَوْلَا أَنَّكَ كُنْتَ فِي يَدِ مَنْ كَانَ قَبْلِي لَمْ أَتَعَرَّضْ إِلَيْكَ، ثُمَّ قَالَ: يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ أَلَمْ آمُرْكَ أَنْ تَرْفَعَ الْمِحْنَةَ؟ فَقَالَ أَحْمَدُ: فَقُلْتُ، اللهُ أَكْبَرُ، هَذَا فَرَجٌ لِلْمُسْلِمِينَ، ثم قال: ناظروه، يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ، كَلِّمْهُ. فَقَالَ لِي عَبْدُ الرحمن: مَا تَقُولُ فِي الْقُرْآنِ؟ فَلَمْ أُجِبْهُ، فَقَالَ

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (١ / ٢٠) برقم: (٥٣).

الْمُعْتَصِمُ: أَجِبْهُ، فَقُلْتُ: مَا تَقُولُ فِي الْعِلْمِ؟ فَسَكَتَ، فَقُلْتُ: الْقُرْآنُ مِنْ عِلْمِ اللهِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ [الرحمن: ١-٣].

وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ عِلْمَ اللهِ مَخْلُوقٌ فَقَدْ كَفَرَ، فَسَكَتَ، فَقَالُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كفَّرك وكفَّرنا، فَلَمْ يَلْتَفِتْ الخليفة إِلَىٰ ذَلِكَ، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: كَانَ اللهُ وَلَا قُرْآنَ، فَقُلْتُ: كَانَ اللهُ وَلَا عِلْمَ؟ فَسَكَتَ. فَجَعَلُوا يتكلمون من ههنا وههنا، فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَعْطُونِي شَيْئًا مِنْ كتاب الله أو سنَّة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقُولَ بِهِ، فَقَالَ: ابْنُ أَبِي دُؤَادٍ: وَأَنْتَ لَا تَقُولُ إِلَّا بِهَذَا وَهَذَا؟ فَقُلْتُ: وهل يقوم الإسلام إلا بهما؟ وجرت بينهما مُنَاظَرَاتٌ طَوِيلَةٌ وعلاهم الإمام أحمد بالحجج.

فَقَالَ ابْنُ أَبِي دُؤَادٍ: هُوَ وَاللهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ضالٌّ مضلٌّ مبتدعٌ، وهؤلاء قُضَاتُكَ وَالْفُقَهَاءُ فَسَلْهُمْ، فَقَالَ لَهُمْ: مَا تَقُولُونَ فيه؟ فَأَجَابُوا بِمِثْلِ مَا قَالَ ابْنُ أَبِي دُؤَادٍ، ثم أحضروه في اليوم الثاني فناظروه ثم في اليوم الثالث فناظروه، وَفِي ذَلِكَ كُلِّهِ يَعْلُو صَوْتُهُ عَلَيْهِمْ، وَتَغْلِبُ حُجَّتُهُ حُجَتهم.

قَالَ: فَإِذَا سَكَتُوا فَتَحَ الْكَلَامَ عليهم ابن أبي دؤاد، وكان من أجهل الناس بِالْعِلْمِ وَالْكَلَامِ، قال: فَجَعَلُوا يُنْكِرُونَ الآثار ويردون الاحتجاج بها، قال أحمد: سمعت مِنْهُمْ مَقَالَاتٍ لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّ أَحَدًا يقولها، وقد تكلم معي برغوث بِكَلَامٍ طَوِيلٍ ذَكَرَ فِيهِ الْجِسْمَ وَغَيْرَهُ بِمَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ، فَقُلْتُ: لَا أَدْرِي مَا تَقُولُ، إِلَّا أَنِّي أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ أَحَدٌ صمد، ليس كمثله شيء، فَسَكَتَ عَنِّي.

وأَوْرَدْتُ علَيهِمْ حَدِيثَ الرُّؤْيَةِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ فَحَاوَلُوا أَنْ يُضَعِّفُوا إِسْنَادَهُ، وفي غضون ذلك يقول له الْخَلِيفَةُ: يَا أَحْمَدُ أَجِبْنِي وَيَتَلَطَّفُ بِهِ حَتَّىٰ أَجْعَلَكَ مِنْ خَاصَّتِي، فَأَقُولُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَأْتُونِي بِآيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ أَوْ سُنَّةٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ

-عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام- حَتَّىٰ أُجِيبَهُمْ إِلَيْهَا، وَاحْتَجَّ أحمد عليهم بالحجج، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ لَهُمْ حُجَّةٌ مَعَهُ عَدَلُوا إِلَىٰ اسْتِعْمَالِ جَاهِ الْخَلِيفَةِ، فقالوا: يا أمير الْمُؤْمِنِينَ هَذَا كَافِرٌ ضَالٌّ مُضِلٌّ.

وَقَالَ لَهُ إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ نَائِبُ بَغْدَادَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَيْسَ مِنْ تَدْبِيرِ الْخِلَافَةِ أَنْ تُخَلِّيَ سَبِيلَهُ وَيَغْلِبَ خَلِيفَتَيْنِ، انظر إلىٰ قرناء السوء، من يُزَيِّن الضلال، قال: فَعِنْدَ ذَلِكَ حَمِيَ وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ، وَكَانَ أَلْيَنَهُمْ عَرِيكَةً، وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُمْ علىٰ شيء. قَالَ أَحْمَدُ فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ لِي: لَعَنَكَ اللهُ، طَمِعْتُ فِيكَ أَنْ تُجِيبَنِي فَلَمْ تَجْبُنِي، ثُمَّ قَالَ: خُذُوهُ وَاخْلَعُوهُ وَاسْحَبُوهُ.

قَالَ أَحْمَدُ: فأخذت وسُجِنْتُ وسُحبت وخُلعت وجيء بالْعُقَابَيْنِ والسياط وأنا أنظر، وكان معي شعرٌ مِنْ شَعْرِ النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مصرورٌ فِي ثَوْبِي، فَجَرَّدُونِي مِنْهُ وَصِرْتُ بَيْنَ الْعُقَابَيْنِ، فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ اللهَ اللهِ، إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِلَّا بِإِحْدَىٰ ثَلَاثٍ**»(٤) وَتَلَوْتُ الْحَدِيثَ، وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**أُمرت أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهِ، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ**»(٥) فَبِمَ تَسْتَحِلُّ دَمِي وَلَمْ آتِ شَيْئًا مِنْ هَذَا؟ يَا أمير المؤمنين؛ اذكر وقوفك بين اللهِ كَوُقُوفِي بَيْنَ يَدَيْكَ، فَكَأَنَّهُ أَمْسَكَ.

ثُمَّ لَمْ يَزَالُوا يَقُولُونَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ إنه ضالٌّ مضلٌّ كافر، فأمر بي فأُقمت بين الْعُقَابَيْنِ ، وجيء بِكُرْسِيٍّ فَأُقِمْتُ عَلَيْهِ، وَأَمَرَنِي بَعْضُهُمْ أَنْ آخُذَ بِيَدِي بِأَيِّ الْخَشَبَتَيْنِ فَلَمْ أَفْهَمْ، فَتَخَلَّعَتْ يَدَايَ، وجيء بِالضَّرَّابِينَ وَمَعَهُمُ السِّيَاطُ فَجَعَلَ

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٩ / ٥) برقم: (٦٨٧٨)، ومسلم في صحيحه (٥ / ١٠٦) برقم: (١٦٧٦).
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه (١ / ١٤) برقم: (٢٥)، ومسلم في صحيحه (١ / ٣٩) برقم: (٢٢).

أَحَدُهُمْ يَضْرِبُنِي سَوْطَيْنِ وَيَقُولُ لَهُ الْمُعْتَصِمُ: شُدَّ قَطَّعَ اللهُ يديك، ويجئ الْآخَرُ فَيَضْرِبُنِي سَوْطَيْنِ ثُمَّ الْآخَرُ كَذَلِكَ، فَضَرَبُونِي أَسْوَاطًا فَأُغْمِيَ عليَّ، وَذَهَبَ عَقْلِي مِرَارًا، فَإِذَا سكن الضرب يعود إليَّ عَقْلِي، وَقَامَ الْمُعْتَصِمُ إِلَّي يَدْعُونِي إِلَىٰ قَوْلِهِمْ فَلَمْ أُجِبْهُ، وَجَعَلُوا يَقُولُونَ: وَيْحَكَ! الْخَلِيفَةُ عَلَىٰ رأسك فلم أقبل، فأعادوا الضَّرْبَ ثُمَّ عَادَ إِلَيَّ فَلَمْ أُجِبْهُ، فَأَعَادُوا الضَّرْبَ ثُمَّ جَاءَ إِلَيَّ الثَّالِثَةَ، فَدَعَانِي فَلَمْ أَعْقِلْ مَا قَالَ مِنْ شِدَّةِ الضَّرْبِ، ثُمَّ أَعَادُوا الضَّرْبَ فَذَهَبَ عَقْلِي فَلَمْ أُحِسَّ بِالضَّرْبِ.

وَأَرْعَبَهُ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِي وَأَمَرَ بِي فَأُطْلِقْتُ، وَلَمْ أَشْعُرْ إِلَّا وَأَنَا فِي حُجْرَةٍ مِنْ بِيْتٍ، وَقَدْ أُطْلِقَتِ الْأَقْيَادُ مِنْ رِجْلِي، وَكَانَ ذَلِكَ فِي الْيَوْمِ الْخَامِسِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ رَمَضَانَ مِنْ سَنَةِ إِحْدَىٰ وَعِشْرِينَ وَمِائَتَيْنِ، ثُمَّ أَمَرَ الْخَلِيفَةُ بِإِطْلَاقِي إِلَىٰ أَهْلِهِ، وَقَدْ كَانَ الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ رجلًا طُوالًا -يقول ابن كثير- أَسْمَرَ اللَّوْنِ كَثِيرَ التَّوَاضُعِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ و رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وَلَمَّا رَجَعَ إِلَىٰ مَنْزِلِهِ جَاءَهُ الْجَرَّايِحِيُّ فَقَطَعَ لَحْمًا مَيِّتًا مِنْ جَسَدِهِ وجعل يداويه والنائب يبعث كثيرًا فِي كُلِّ يوم يَسْأَلُ عَنْ حَالِهِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْمُعْتَصِمَ نَدِمَ عَلَىٰ مَا كَانَ مِنْهُ إِلَىٰ أَحْمَدَ نَدَمًا كَثِيرًا، وَجَعَلَ يَسْأَلُ النَّائِبَ عَنْهُ والنائب يستعلم خبره، فلما عوفي فرح المعتصم وَالْمُسْلِمُونَ بِذَلِكَ، وَلَمَّا شَفَاهُ اللهُ بِالْعَافِيَةِ بَقِيَ مُدَّةً وَجِسَدُهُ يُؤْذِيهِ وعفا عن المعتصم إلا من كان مبتدعًا، وقال: وَمَا ينفعُكَ أَنْ يُعَذِّبَ اللهُ أَخَاكَ الْمُسْلِمَ بسَبَبِكَ؟!!

قال ابن كثير: «**وكان الذين ثبتوا علىٰ الفتنة فَلَمْ يُجِيبُوا بِالْكُلِّيَّةِ أَرْبَعَةٌ: أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَهُوَ رَئِيسُهُمْ، وَمُحَمَّدُ بْنُ نُوحٍ ومات في الطريق، وَنُعَيْمُ بْنُ حَمَّادٍ الْخُزَاعِيُّ وَقَدْ مَاتَ فِي السِّجْنِ، وَأَبُو يَعْقُوبَ الْبُوَيْطِيُّ وَقَدْ مَاتَ فِي سجن الواثق**».

والواثق محنته أخرى:

لما وَلِيَ الوَاثِقُ بعد المعتصم أَظهرَ مِنَ المِحْنَةِ وَالمَيل إِلَىٰ أَحْمَدَ بنِ أَبِي دُوَادَ أكثر من أبيه، فاشتدَّ الأَمْرُ عَلَىٰ أَهْلِ بَغْدَادَ، وَأَظْهَرتِ القُضَاةُ المِحْنَةَ بِخلقِ القُرْآنِ،و فرق بين الناس و نسائهم، وأُلزم القرَّاء في الكتَّاب أن يُلقِّنوا الأطفال القولَ بخلق القرآن، فَجَاءَ نَفرٌ من القرَّاء إلىٰ الإمام أحمد يقولون: قَدْ فَشَا الأَمْرُ وَظهر الكفر ولا نرضىٰ بخلافته وإمرته، فناظرهم الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال الخلَّال: «**سَمِعْتُ حَنْبَلًا يَقُولُ فِي وِلَايَةِ الْوَاثِقِ: اجْتَمَعَ فُقَهَاءُ بَغْدَادَ إِلَىٰ أَبِي عَبْدِ اللهِ، أَبُو بَكْرِ بْنُ عُبَيْدٍ، وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ عَلِيٍّ الْمَطْبَخِيُّ، وَفَضْلُ بْنُ عَاصِمٍ، فَجَاءُوا إِلَىٰ أَبِي عَبْدِ اللهِ، فَاسْتَأْذَنْتُ لَهُمْ، وَقَالُوا: هَذَا الأَمْرُ قَدْ فَشَا وَتفَاقمَ -يعنون إظهاره خلق القرآن-، فقال أبو عبد الله: فما تريدون؟ قالوا: أن نشاورك في أنا لسنا نرضىٰ بإمرته ولا سلطانه فناظرهم وقال: عَلَيْكُمْ بِالنُّكْرَةِ بِقُلُوبِكُمْ، وَلا تَخْلَعُوا يَدًا مِنْ طَاعَةٍ، وَلا تَشُقُّوا عَصَا الْمُسْلِمِينَ، وَلا تَسْفِكُوا دِمَاءَكُمْ وَدِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ مَعَكُمْ، انظروا في عاقبةِ أمركم، وَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَسْتَرِيحَ بَرٌّ، أَوْ يُسْتَرَاحَ مِنْ فَاجِرٍ**» في كلامٍ طويل.

فقالوا له: يا أبا عبد الله؛ ألسنا في فتنة؟ فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا، لا أرىٰ ذلك ولا آمر به، الصبر علىٰ ما نحن فيه خيرٌ من الفتن؛ يُسفك فيها الدماء، ويُستباح فيها الأموال، وتُنتهك فيها المحارم، ثم ذكر أن السيف إذا وضع والناس إذا خرجوا عمَّت الفتنة وسُفكت الدماء، وهذا بابٌ عظيم، مع شدَّة المخالفة والعداوة

وإظهار الكفر يأمر الناس بلزوم الجماعة وعدم الخروج، وهذا مذهبٌ عظيم عند السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ وأهل السنة والجماعة.

وكان الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: **«ما يأتي عليَّ يوم إلا وأنا أدعو الله للسلطان»**.

وكان يقول: **«إني لأدعو له بالتسديد والتوفيق بالليل والنهار، وأرىٰ ذلك واجبًا عليّ»**.

نختم دقيقة وفاته رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛

اشْتَدَّتْ عليه عِلَّتُهُ يَوْمَ الخَمِيْسِ، فَلَمَّا كَانَتْ لَيْلَةُ الجُمُعَةِ، ثَقُلَ، وَقُبِضَ صَدْرَ النَّهَارِ، فَصَاحَ النَّاسُ، وَعَلَتِ الأَصوَاتُ بِالبكَاءِ، حَتَّىٰ كَأَنَّ الدُّنْيَا قَدِ ارتَجَّتْ، وَامتَلأَتِ السِكَكُ وَالشَّوَارِعُ.

سُئِلَ عَبْدُ اللهِ بنُ أَحْمَدَ: هَلْ عَقَلَ أَبُوكَ عِنْدَ المُعَايَنَةِ؟ قَالَ: نَعَمْ. كُنَّا نُوَضِّئُهُ، فَجَعَلَ يُشِيرُ بِيَدِهِ، فَقَالَ لِي صَالِحٌ: أَيَّ شَيْءٍ يَقُوْلُ؟ فَقُلْتُ: هُوَ ذَا يَقُوْلُ: خَلِّلُوا أَصَابِعِي، قَالَ: فَخَلَّلْنَا أَصَابِعَه، ثُمَّ تَرَكَ الإِشَارَةَ، فَمَاتَ مِنْ سَاعَتِهِ. قَالَ صَالِحٌ: جَعَلَ أَبِي يُحَرِّكُ لِسَانَهُ إِلَىٰ أَنْ تُوُفِّيَ، والوضوء من أعظم العبادات، ففيه يُختَم عليها العمل.

قَالَ عَبْدُ اللهِ بنُ أَحْمَدَ: مَاتَ لاِثْنَتَيْ عَشْرَةَ خَلَتْ مِنْ رَبِيْعٍ الأَوَّلِ، يَوْمَ الجُمُعَةِ.

قال الخَلاَّلُ: سَمِعْتُ عَبْدَ الوَهَّابِ الوَرَّاقَ يَقُوْلُ: مَا بَلَغنَا أَنَّ جَمعًا فِي الجَاهِلِيَّةِ وَلاَ الإِسْلاَمِ مِثْلُهُ -يَعْنِي: مَنْ شَهِدَ الجَنَازَةَ- حَتَّىٰ بَلَغَنَا أَنَّ المَوْضِعَ مُسِحَ وَحُزِرَ عَلَىٰ الصَّحِيْحِ، فَإِذَا هُوَ نَحْوٌ مِنْ أَلفِ أَلفٍ -أي مليون-، وَحَزرْنَا عَلَىٰ القُبُوْرِ

نَحْوًا مِنْ سِتِّيْنَ أَلفَ امْرَأَةٍ، وَفَتَحَ النَّاسُ أَبوَابَ المَنَازِلِ فِي الشَّوَارِعِ وَالدُّرُوبِ، يُنَادُوْنَ مَنْ أَرَادَ الوُضُوءَ.

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بنُ أَحْمَدَ: «**سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: قولوا لأهل البدع بيننا وبينكم يوم الجنائز**». قال ابن كثير: «**وقد صدَّق الله قوله في هذا، فإنه** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **كَانَ إِمَامَ السُّنَّةِ فِي زَمَانِهِ، وَعُيُونُ مُخَالِفِيهِ أحمد بن أبي دؤاد القاضي لم يحتفل أحد بموتهم**».

قال عَبْدَ الوَهَّابِ الوَرَّاقَ: «**أَظْهَرَ النَّاسُ فِي جَنَازَةِ أَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ السُّنَّةَ وَالطَّعنَ عَلَىٰ أَهْلِ البِدَعِ، فَسَرَّ اللهُ المُسْلِمِيْنَ بِذَلِكَ عَلَىٰ مَا عِنْدَهُم مِنَ المُصِيبَةِ لَمَّا رَأَوْا مِنَ العِزِّ وَعُلُوِّ الإِسْلاَمِ وَكَبْتِ أَهْلِ الزَّيغِ، وَلَزِمَ بَعْضُ النَّاسِ القَبْرَ، وَبَاتُوا عِنْدَهُ، وَجَعَلَ النِّسَاءُ يَأْتِيْنَ حَتَّىٰ مُنِعْنَ**».

قال: «**وَسَمِعْتُ المَرُّوْذِيَّ يَقُوْلُ عَنْ عَلِيِّ بنِ مَهْرُوَيْه، عَنْ خَالَتِهِ، قَالَتْ: مَا صَلَّوْا بِبَغْدَادَ فِي مَسْجِدِ العَصْرِ يَوْمَ وَفَاةِ أَحْمَدَ. وَقِيْلَ: إِنَّ الزَّحمَةَ دَامَتْ عَلَىٰ القَبْرِ أَيَّامًا**»، وَكَانَ عُمْرُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يوم توفي سبعًا وسبعين سنة وأيامًا أقل من شهر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

هذه السيرة أيها الأفاضل كثيرة الفوائد، عميقة الدلالات، تأخذ بلُب القلوب وتُحييها، وتُنير الطريق للسالكين، فأئمتنا هم المصابيح، والله عَزَّوَجَلَّ لم يُخلِّد ذِكرهم عن عبث سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، إنما خلَّد ذكرهم لأعمالٍ سبقت منهم، وجعل لهم لسانَ صدقٍ في الآخرين كأنهم أحياء بين المسلمين؛ فنسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يُلحقنا بهم في جنَّاته، وأن يُدخلهم أعظم مدخله، وأن يوفِّق المسلمين إلىٰ ما يُرضيه عنهم، وأن يهديهم سبيله المستقيم، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه.

أخَّرناكم ولكن هذه السيرة تستحق الأيام، المحنة فقط أُلِّف فيها مجلَّدات، الإمام عبد الله بن أحمد ألَّف فيها مجلَّدين، وابنه صالح مجلَّدين، وغيرهم من

الأئمة، لو جلسنا فقط في المحنة وما دار فيها والفوائد منا لطالت المجالس وانقطعت المحاضرات، فكيف بالسيرة والفضائل التي لا تكاد تُحصَر، وأنا اختصرتُ اختصارًا شديدًا جدًّا جدًّا.

نسأل الله أن يُجزينا وإياكم خيرًا، ويُجزي القائمين علىٰ هذه الجائزة المباركة خير الجزاء علىٰ اختيارهم وحسن ظنِّهم، وأسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعل بلدنا عامرًا بالسنَّة والكتاب، وأن يوفِّق ولاة أمورنا إلىٰ ما يُرضيه عنهم، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه، وجزاكم الله خيرًا.

حقوق الطبع محفوظة

شبكة بينونة للعلوم الشرعية